

الثلاثاء 28-07-2009

697-الحق في الانسحاب (الرجوع): الضنين إلى "ركنك الخاص" (من 2)

الحلقة (16) من وحى الحالة الثالثة

دراسة في علم السيكيوباتولوجي (الكتاب الثاني)



لوحات تشكيلية من العلاج النفسي
من وحى ديوان: أنوار النفس

الركن بتاعى متحضر!!!،

هذا هو أول بيت في هذه القصيدة، (هذه الحالة)

دع ما سوف يلي بعد ذلك الآن من مظاهر وتجليات وسلبيات
الانسحاب من أى علاقة،

ولو حتى العلاقة العلاجية، والذي يبدأ بـ :

"جارجله واسينكم، ساعش أحسنكم"،

دع ذلك جانبا الآن، ودعنا نتساءل:

هل هناك أى منا ليس عنده هذا الخنين إلى العودة إلى هذا
الركن الغائر في

تركيبه البشرى العادى؟؟ وهو هو الذى يسقطه أحيانا
إلى خارجه في صورة

السعى إلى اللجوء

إلى موقع سرى خاص،

إلى دفة غامض خاص،

إلى سكون واعد خاص،

إلى وحدة ختارة خاصة،

إلى صمت مُفعم خاص،

(خطر ببالي خاطر لست متأكدا من وجهاته يقول: إن بعض المنقبات، خاصة اللاتي يصلين أحيانا، يمارسون التنقيب كنوع من اللجوء إلى ركنهم الخاص، "واللى عاجبه!!" ما رأيك؟ لست متأكدا!)



هذه الخواطر كانت بداية هذه الحلقة التي سوف تقلب هذا العمل كله (كما تلاحظ في تغيير العنوان) من "شرح على المتن"، إلى استلهام من المتن، بعنوان "من وحي..المتن" (كما تلاحظ أيضا من تغيير العنوان)

بصراحة، دعاني هذا التغيير المهم إلى إعادة النظر في عنوان الجزء الأول من هذا الكتاب "دراسة في علم السيكوباتولوجي"، والذي صدر منذ ثلاثين عاما، يا ترى : هل كان هو حقا شرحا على المتن، أم أنه كان استلهاما من المتن، غالبا كان استلهاما أكثر منه شرحا، (وقد أغير العنوان في الطبعة التالية) ، وإن كان المتن (ديوان سر اللعبة) قد أدى وظيفة أخرى، وهى إلزام الكاتب بحدود معينة منعت تداعياته واستطراداته التي لا تتوقف،

الأمر يختلف في حالتنا هنا نوعا ما، حيث المتن يتمثل بعرض شعر بالعامية أثارته خبرة من واقع معاشة شخص ما، مريضا كان أم سويا، وبالتالي يصبح الشرح تشريح قبيح لتشكيل شعري هو صورة لا يجوز تشريحها (لعل هذا بعض ما حدث في الحلقات السابقة، وسوف أراجعها قبل النشر الورقى غالبا)

بعد هذه الإفافة التي أرجو ألا تكون قد تأخرت كثيرا، أرى أن الأمر لا بد أن يختلف:

وقد اختلف فعلاً كما يلي بدءاً بـ :

تغيير العنوان، من "شرح على المتن" إلى "من وحي المتن"

ثم أن النص المستلهم يسبق المتن،

وقد يخالفه،

وقد يشرح عكس ما يرد في التشكيل الشعري تحديداً ، (مثل ما هو الحال في هذه الحلقة بالذات)

ثم أن الاستطراد مسموح ، بل مطلوب

مثلا : يحكى المتن هنا عن سلبية الاجذاب إلى الركن الخاص بدرجة لحوح، ومعادة، ومتعلقة بتجنب واضح وحاسم للوعى بأى علاقة بالآخر، خوفاً، وعزلة، أو حتى مرضاً، ثم إنه يرسم التشكيل الشعري بما ينبه إلى احتمال استخدام ما يسمى العلاج النفسى لتأكيد هذه الآلية الانسحابية المتكررة في مواجهة تكوين علاقة إنسانية حقيقية، بما في ذلك العلاقة العلاجية

استلهمتُ من كل هذا عكسه : بمعنى أن هذا المتن نبهنى إلى ما قدمته حالاً، من أن:

من حق أى منا أن يجتزَم نزوعه أحيانا إلى العودة إلى ركنه الخاص، بعض الوقت.

هل هى مسألة شخصية أم نموذج محتمل لظاهرة بشرية أساسية؟

استدرجتنى هذه الحلقة إلى النظر في هذه الظاهرة التى قد تبدو أساسية في التركيب البشرى، هذه الظاهرة أنا عايشتها، وأعايشها شخصياً بشكل لحوح، وأذكر أننى تناولتها في كثير من أعمالى، خاصة الشعرية، و غير ما تيسر من حكى عن السيرة الذاتية، (غير أدب الرحلات أساساً في ترحالاتى الثلاثة)، ولم أكن أتصور أنها جوهرية إلى هذه الدرجة، لا في وجودى، ولا بصفة عامة:

ذلك أننى كنت، وما زلت، أشعر بجنين ملح طول الوقت تقريبا إلى العودة (وليس بالضرورة إلى الانسحاب) إلى ركنٍ ما:

مكان صغير بعيد في حضن الطبيعة،

أعلى الجبل ،

على شاطئ خال،

في عشة منفردة بين الحقول،

في حجرة مستقلة (بها حمام خاص جدا) في بيتى (ما أمكن ذلك)،

.....

هذا بالنسبة لحنينى إلى ركن الخارج، أما ركن الداخل فدعه جانبا الآن.

هل ما بالداخل هو ركن واحد غائر بعيد يمكن أن تنتهى إليه كل الأركان؟

أم أنه أركان متعددة، متتالية أو متكاملة، مثل
الاستراحات على الطريق السريع؟

حين أشعر بهذا الحنين لا يحضرنى بالاسم الذى أطلقتُه عليه
حالا "الحق فى الانسحاب"،

هو ليس انسحابا

ليس ابتعادا،

ليس دفعا للآخر احتماء منه

هو شئ، أشبه:

بالاستئذان الحاسم،

مع وعد ضمنى بعودة عتملة

(أشعر أنه لو كانت الطمأنينة مطلقة أن العودة مضمونة
100% إذن لانتقص ذلك من حق الرجوع إلى الركن)

فعلا كلمة الرجوع أفضل كثيرا،

رجوع مؤقت، مع تلويح وأمل فى عودة أكثر صدقا وجاهزية.

الأرجح أنها ظاهرة طبيعية، مزروعة فى تركيبنا الحيوى منذ
نشأ ما يسمى الإيقاع الحيوى، ليس مهما الآن أن نعرف أن
الإيقاع الحيوى عامة، والإيقاع الحيوى البشرى، قد نشأ
ليتناغم مع طبيعة هى فى جوهرها مبنية على إيقاعية الكون
الحيوية، أم أنه طبيعة بيولوجية بدنية فى التركيب الحيوى
الأساسى، ثم راحت تتناغم مع الإيقاع الحيوى المحيط فى الطبيعة
والكون، هذه قضية لم تحسم، لكن نتيجتها واحدة، وهى أننا
نعيش فى إيقاع، وبإيقاع حيوى مستمر.

هذا الانسحاب :

إلى الداخل،

إلى الكهف،

إلى الغار،

إلى النوم،

إلى البيات الشتوى،..إخ

هو الضلع الضرورى الراجع لاستمرارية حركية الإيقاع
الحيوى، وبالذات فى نبضه مع برنامج "الذهاب والعودة": In-
and-Out Program

حين انتهت إلى هذه الحقيقة تذكرت ما ورد بشأن حالتى الخاصة
فى عمل واحد هو الجزء الثانى من الترحلات " الموت والحنين"،

ثم إنى راجعت فى ذاكرتى، دون أن أرجع إلى أوراقى وكتبى،
إلى بعض مثل ذلك مما ذكره جوستون باشلار، وخاصة فى كتابه
"شاعرية المكان".

يبدو أن الحق في الانسحاب إلى

ركن ما

قبو ما،

كهف ما،

هو حق أساسي،

وهو إذا مورس بسلاسة مثل كل الحقوق، فإنه يعفينا من أحد سبيلين:

الأول: الاضطرار إلى انسحاب جبان ومتكرر تعميقا وتثبيتا للموقف الشيزيدي Schizoid Position حيث "لا موضوع"، (وهو الذى جاء فى المتن الشعري، والذى سوف نعود إليه لاحق)

والثاني: الاضطرار إلى الاستمرار اضطرادا بالقصور الذاتى، مع التنبيه (تنبيه الواحد لنفسه، أو عدم سماح الآخرين له): بعدم الحنين إلى، أو طلب الحق في، أو الاعتراف بـ :

حق للرجوع، ولو المؤقت (أحسن عيب كذا)،

والنتيجة: هى ذلك الوجود المسطح، والعلاقات الزائفة، أو المغترية، أو المرض. (وهو الرجوع هربا جينا لا اختيارا: المتن)

تجليات هذا الموقف الشيزيدي بهذه الصورة فى العلاج النفسى بشكل سلى فى العلاج النفسى، هو نص جاء بالمتن الشعري الذى لن نناقشه إلا لاحقا، ربما نعود إليه فى الأسبوع القادم .

لا بد أن أعتزف فى هذه الحلقة أننى حين عدت إلى جويستان باشلار شاعرا وناقدا أساسا قبل أن يكون فيلسوفا، سمعته بأذنى يوجئى توبيخا قاسيا، ومباشرا، على حكاية "شرح على المتن" هذه، لم يكن غاضبا مثل غضب المرحوم إبراهيم عبد الخليم منى حين نظر فى الشرح المبدئى لديوان أغوار النفس، ولا مستعبدا هذا الاحتمال دهشة مثلما نبهنى المرحوم صلاح عبد الصبور بعد مناقشته ديوان سر اللعبة فى البرنامج الثانى، باشلار نهرنى معقبا ناقدا ، وقبل أن أقتطف بعض باشلار أوجز نقاط هذا التقديم كما يلى:

الخلاصة :

• الحنين إلى الرجوع إلى الركن الخاص فيه شيء من النكوص المشروع .

• الرغبة فى النكوص وممارسته دوريا هما من ضمن آليات الإيقاع الحيوى

• النوم هو من أعظم آليات النكوص المشروع،

• فى المدرسة التحليلية الإنجليزية (ميلان كلين- فيريرن- جانتريب)، اعتراف بالأنسا الناكص دائم الجذب إلى وراء ،

• نداء الرحم هو وارد في آليات النمو والعلاقات التي كررنا الإشارة إليها تحت اسم برنامج الدخول والخروج، In and out program ،

• من أهم "وظائف الذات Ego Functions" وظيفة أسماها "بلاك Bellack" "النكوص في خدمة الأنا أو النكوص للتكيف الأعلى" Adaptive Regression in the Service of the Ego (ARISE) ،

• كل هذه الاتجاهات تفسر ذلك النزوع الطبيعي للاحتماء مرفقاً خاص، من أول كوخ صغر أعلى جبل منعزل، إلى إغفاء محدودة تحت غطاء دافئ حالك.

• بمعنى أن يكون لكل فرد "مرفقاً" خاص (نفسى أساساً) يركن إليه بين الحين والحين ليعاود منه الرحلة من جديد.

بعض خبرتي الشخصية كما سجلتها بالصدفة سوف تكون موضوع حلقة الغد:

"تحليلات الحنين إلى الركن الخاص في الجزء الثالث من ترحلات الكاتب، باسم: الموت والحنين"

لكن، هنا يقفز إلى حرج ما

أليس في ذلك نوع من "النقد" لعمل إبداعي، ولو كان سيرة ذاتية للكاتب، مع أنه لا يجوز أن ينقد كاتب نفسه؟

يجوز!!

لكن هذا هو ما كان، حين يتفضل النقاد بالنظر إن كان الأمر يستأهل.

أمركم لله

وأمرى لكم، بعد الله.

الملحق:

مقتطفات من باشلار

.... بالنسبة للتأكيد على النهى عن هذا "الذى يسمى "شرح على المتن" بالنسبة للشعر: (وقد وضعت نقطاً بدل الحذوف، ثم وضعت إضافاتي بين قوسين، فيكون المقتطف هو ما وصلني، وليس بالضرورة حرفية ما قال باشلار):

".... الصورة الشعرية قادرة دائماً على إنتاج ذاتها بشكل مستمر. هذه الصورة التي بدأت ترتبها بالمتلقي لن تشيخ، لأن الوعي الذاتي والفردي يمكنها دائماً من سبل التجديد والحياة"

..... أما الفكر المفهومي، فهو لا يمكن من تناول الصورة في حركيتها،

..... كما أن "تناول الصورة في "فضيلة أصالتها" يفرض بأن يتخيل (المتلقى) بدوره، وأن يعيش من جديد مرحلة الإبداع، حيث يؤول الأشكال التي يفرضها الشاعر، بشكل يبقى معه وفيا ليس فقط للصورة، ولكن كذلك إلى ما سماه، مينكوفسكي بـ "رنينها"

إن لعبة المماهة بالصورة تعطي إمكانية أن تعيش الذات التأمّل الشارد من جديد وبالتالي النظر إلى هذه الصورة في كليتها دون اختزالها إلى تجليات أخرى، أى الوقوف عندها في ذاتها ولذاتها.

..(التأكيد) على مسألة حضور الوعي.... : يجب أن يعايش القارئ من جديد الحدث الإبداعي. (الذى) .. يمكنه (من) إحياء وعيه الشعري

....كما أن ... الهدف..... هو جعل عملية الوعي حاضرة، في وقت متوتر إلى أبعد حدود التوتر".

.... المطلوب ليس هو فهم الصورة، ولكن الأساسي هو معايشة هذه الصورة من جديد، إدراكها في ذاتها دون تحويلها إلى لغة أخرى

.... حتى لا تتم خيانة هذه الصورة، (فإنه ينبغي التركيز) على صدق ورين retentissement هذه الصورة التي تعاش من جديد، وترفض أن يعطى لها معنى واحدا.

.... كما أن هذه الصورة غير قابلة للاختزال L'irréductibilité de l'image وهي إحدى المسلمات الأساسية لمنهجية غاستون باشلار.

لقد كانت أولانية الصورة، أحداثها، حركيتها ثم تعددها بالنسبة للوعي الفردي... (هي التي جعلت باشلار يدعو) إلى التמוّض عند منطلق الصورة، والنظر إليها كبدء مطلق، ومعايشة كينونة الصورة في مباشرتها، حيث تحدث رنيننا وصدى في وعي مستقبلها... من أجل النظر إلى الصورة في انفصال عن كل حتمية تحاول اختزال الصورة إلى كيان مفهومي،

..... (وبالتالي يمكن للمتلقى): "أن يحصل بالإضافة إلى لذة الجمال على ربح للوعي، والذي من الصعب تعريفه، إلا أنه مهم. لأنه في هذا الربح تكمن قيمة ... الصورة والتي تظهر كفلسفة، وليس فقط "كمدرسة للسذاجة".

وبعد

هل كان يمكن بعد قراءة هذا الكلام الذي كان يعتمل في داخلي طول الوقت، أن أكمل فيما أسميته "شرح على المتن؟؟؟"

هذا، وسوف نكتطف بعض باشلار أيضا وهو يسمح لنا بمشروعية الحنين إلى الركن دون مرض، بعد عرض الخبرة الشخصية للكاتب غدا.